أخبرني أنهم أجروا له عملية، ووضعه مستقر، والآن يرتاح في بيته، لكنه ممنوع من الزيارات حتى نهاية الامتحانات.

قال أبو صالح: بعد خروجنا بأيام عدة يجب الاتفاق على موعد لزيارة أبي حسن، ليس من الضروري الجميع دفعة واحدة، يُفضّل أن نتوجه بشكل مجموعات، كل ثلاثة أو أربعة أشخاص مع بعض.

قال عدنان: واللّه لم أعرف في حياتي إنساناً أروع منه.

* * *

قال خليل: الإنسان يساوي علبة سردين، ربك ستر، لو لم يُحضروا الطبيب ليعطيني الإبرة في الوقت المناسب لكُنّا رُحْنا. لا أدري هل علبة السردين فاسدة؟ أم أن أكل السردين في هذا الحر الشديد كان السبب؟

قال عدنان: الإنسان في هذا الزمن لا يساوي فرنكاً.

ما تزال صرخات النصر والاحتجاج والقهقهات تنبعث من الغرفة المجاورة طيلة الأيام السبعة الأخيرة، حيث يلعب أبو نبيه وأخمد وسعيد وصفوان «الطُّرنيبَ» كل يوم حتى آذان الصبح. بعدها يصلّون وينامون حتى الظهيرة، ثم يصلّون الظهر ويتناولون غداءهم ويعاودون اللعب. لكنهم في ليلتهم الأخيرة لم يستطيعوا النوم، فاستمروا في اللعب.

نظر عدنان إلى ساعته عندما سمع طرقات على الباب الخارجيّ، كانت التاسعة تماماً. تمتم: إنه المحاسب ومعاون الوزير.

توجه نحو الغرفة، فتح الباب، قال: لعبكم مثل جماع القطط، الذي فوق يصرخ والتي تحت تصرخ، لا تعرف مَنْ يستلذّ ومَنْ يتألم. هيا... وصلوا.

ابتهج الجميع وصفّقوا فرحين، كانت الفرحة مزدوجة: فهي المرة الأولى التي يُفتح فيها الباب الخارجيُّ للقبو ويتسلل ضوءُ النهار على مرأى من أعينهم، والأمر الأهم هو حضور المحاسب.

معاون الوزير كان متفهماً أنّ أعضاء اللجنة بحاجة إلى قبض تعويضهم والخروج بسرعة إلى الهواء الطلق أكثر من حاجتهم إلى أيّ خطابٍ رنّان، فاكتفى ببضع كلمات شكر فيها جهودهم.

أعضاء اللجنة على ثقة بأنّ اثنين من ميكروباصات الوزارة ينتظرانهما في الخارج وسينقلانهما إلى بيوتهم. لكنّ أحداً منهم لم يتوقع تلك الورقة الملصقة على باب كل ميكرو: كانت ورقة نعي زميلهم أبي حسن الذي توفي منذ خمسة عشر يوماً!

نَدتْ من أعماق صدورهم شهقةٌ، وارتمت حقائبُهم على أرض الرصيف، ولم يستطع البعضُ حبسَ دموعٍ فرّتْ من عيونهم، ووقفوا جامدين كأعمدة مثبتة في الأرض، ثم ساد صمت عميق، تبادلوا أثناءه نظراتٍ تحمل الكثير من الانكسار والخذلان والتيه.

امتلأ الفضاء بضباب أصفر ثقيل، والأبنية المجاورة الشبيهة بالمعابد والسخية الألوان تنظر إليهم بازدراء، وأشجار الرصيف ساكنة وخائفة من سيارات الطائشين المسرعة...

بعد خمس دقائق تحرك أبو ظافر باتجاه ميكروباص الخط الشماليّ، فقال السائق: عمي أبا ظاهر... هذا الميكرو خطه: دُمّر ـ المهاجرين ـ مساكن برزة ـ حرستا. الميكرو الآخر سيمرّ من التضامن.

أجابه أبو ظافر: أعرف... أريد الذهاب إلى بيت أبي حسن في الشيخ محي الدين.

لم يتفوه بقية أعضاء اللجنة بأية كلمة، وكأنهم أشخاصٌ آليّون. وخلال ثوان صعدوا جميعاً إلى ميكروباص الخط الشماليّ.

وتوجه عدنان نحو السائق قائلاً: إلى بيت أبي حسن.

دمشق

هرر.. هرر.. هرر

تغريد الغضبان

تلك كانت المرةَ الحقيقية الثانية التي سأتمكن فيها من لقائه بعد اعترافي الخطير بأنني أحبه. فكلُّ ما سبق ذلك كان عبارةً عن لحظاتٍ مختلسةٍ عن أعين الجميع في المركز الثقافيّ الذي كنّا نداوم فيه معاً على حضور دورةٍ لتعلّم الرسم.

كان يكبرني بستة أعوام. قصير وعريض ومستطيل. وفي وجهه شيء مّا مشوّهٌ مازلت لا أدري ما هو، لكنْ في ذلك الحين لم يكن يهمني أن أعرف. بل كان يبدو لي ساحراً بذلك التشوه بالذات، أو لأقلْ بتلك الغرابة في تموضع عناصر وجهه.

إحدى صديقاتي كانت تصرّ على أنّ عينيه متسعتان أكثر مما ينبغي، وأنّ المسافة بينهما ضيقة جداً؛ وأخرى كانت تتورد خجلاً قائلةً ـ وهي تحاول بكفها إخفاءَ أسنانها الصفراء المبعثرة بفوضى واضحة في سماء حلقها ـ: «عيناه لا بأس بهما، بل إنهما جذابتان، المشكلة هي في فمه الواسع الذي قد يبتلع رأسَكِ الصغيرَ إذا قبّلكِ». أما أنا فكنتُ أنكمش في معطفي وأرتجف وأرفع حاجبيَّ نحو السماء وأسدل شفتيَّ نحو الأرض، وكأنني أشعر بتفاهة كل

الأوصاف والتحاليل وأُسرّ لنفسي وللمعطف بأني «أحبه».

ذلك اليوم كنتُ ألبس ذلك المعطفَ الخمريَّ اللون، المبطَّنَ بالقطن والصوف، الذي اشترته أُختي مرةً من محلٍّ للثياب الأوروبية المستعملة، وتحته بذلة المدرسة ذات اللون الخاكيّ والتفصيلة العسكرية. وكنتُ ألبسهما دوماً كأنهما عضوٌ إضافيٌّ من أعضاء جسمي.

اعتدتُ ارتداء ذلك المعطف حتى في الأيام الحارة، معلنةً بعناد أنه يقيني الحرارةَ مثلما يقيني البرد. وكنت أَسْخَر مع صديقاتي حين يَسْخرنَ منه وأُقهقه معهنَّ حتى تغسل الدموعُ وجنتيَّ. ولكني أُطلّ في اليوم التالي من بوّابة المدرسة، متلبِّسةً بتهمة ارتدائه كما كنتُ في كل الصباحات، فتُجلجِل الضحكاتُ والتعليقاتُ من جديد، وتبدأ الفتياتُ باتخاذ وضعية التصوير فيتظاهرن بأنهنّ يلتقطن لي بكاميراتهنّ الوهمية وضعياتٍ مختلفةً، وأشاركهنّ عبثَهُنّ بدوري فأستدير جانباً محاولةً سترَ وجهي بكفيَّ مثلما يفعل المتَّهمون في المسلسل الأمريكيّ «العدالة الأخيرة». كانت محاولاتي للتمرد على أوامر أمي المتكررة بالإقلاع عن ارتداء المعطف، وصمودي في وجه تعليقات زميلاتي وسخريتهنّ التي كنتُ أستحضرها بمرارة عندما أكون وحيدةً، مبعثُها رغبتي في الردّ على وقاحة الدائرتيْن اللتيْن أخذتا في الانتفاخ والنموّ فوق صدري. فأنا لم أعرف سبيلاً لسترهما عن أعين الجميع من حولي إلاّ بإخفاء جسدي كاملاً في ذلك المعطف المتّسع الذي كان يغطيني إلى ما تحت ركبتيَّ.

بدأ كل ذلك بعد اللحظة التي رأيتُ إصبع عمي موجهةً نحو صدري وهو يقهقه داعياً الجميعَ إلى إلقاء نظرةٍ: «انظروا! صارت صبية». فاستدارت العيونُ جميعاً في صندوق السيارة الخلفيّ صوبي، واندفعتْ مثل أسهمٍ تخترق البروزيْن اللذيْن حقدتُ عليهما، في تلك اللحظة، حقداً شديداً وتمنيتُ لو أستطيع انتزاعَهما وإطعامَهُما للكلاب!

بعدها لم أعد أستطيع نسيانَ ذيْنك البروزيْن فوق صدري واعتبارَهما جزءاً طبيعياً من جسمي. فقد صارا أكثر إزعاجاً، وصرتُ لا أكفّ عن مراقبتهما والإحساس بثقلهما كلما وقفتُ أو جلستُ أو حتى تنفستُ، وكأنني أحملُ حجريْن صغيريْن أريد رميهما في أعمق بئر ممكنة. وتعزّزتْ نظرتي تلك بعد أن لاحظتُ كيف ربطتْ أمي بينهما وبين عدم قدرتي على اللعب بالحبلة مع أخي الذي يصغرني بعامٍ واحد. فقد صرختْ في وجهي: «ألا تخجلي! انظري إلى صدرك. صرتِ صبية!؟» بحلقتُ بصدري وفهمتُ أنّ الحلمتيْنِ الصغيرتيْن اللتين لم تلفتا انتباهي من قبلُ ولم تشكّلا مصدرَ إزعاجٍ أو خَطَرٍ لي قد تحوّلتا بعد جملة أمي إلى حبلٍ غليظٍ لجرّي إلى الجلوس في البيت مثل الأخريات اللواتي يكبرْنَني.

حينها بدأتُ أحلم بصدرٍ أملَس مثل صدور إخوتي الذكور الذين كلما شبّوا شبراً اتّسعتْ حريتُهم متراً، وكلما نبتتْ شعرةٌ جديدةٌ في ذقونهم خشنتْ أصواتُهم وَسَطَت على جميع الأصوات في البيت. وحين وجدتُ ذلك المعطف السميك صدفةً في خزانة أختي شعرتُ كما يشعر السجينُ حين يُطْلَق إلى نور الشمس.

* * *

تسللتُ من بوابة المدرسة بهدوء. كان الوقت ظهراً، وحرارةُ الشمس باطشة. وقد جعلني مجرّدُ التفكير برؤيته أتمطّى في كل الاتجاهات، وأذوب احمراراً داخل الاحمرار الذي يكسوني من الخارج.

طوّحْتُ بذراعي عالياً فوق رأسي، ملوِّحةً بحقيبتي بحركةٍ دائريةٍ عدةَ مراتٍ في الهواء، حتى كادت تتقيأ أحشاءها من الكتب والدفاتر والأقلام.

أحسستُ بكرتيْن ساخنتيْن من العرق تنزلقان من تحت إبطي. شعرتُ بالضيق، وتمنيتُ لو أستطيع الطيران مثل الممثّلات في السينما بأثوابهنّ الشفّافة المزهرة. ماذا لو اضطررتُ إلى خلع المعطف هناك حيث سأراه؟

تمنيتُ لو لم تكن عيناه متسعتَيْن كلَّ ذلك الاتساع فلا يرى بقعَ العرق تحت إبطي، وهي كانت تشبه الدوائرَ التي كنا نخلّفها أنا وإخوتي كلّما أخطأْنا طريقَنا في العتمة إلى الفتحة المخصصة للمرحاض الخلويّ لبيتنا، فنتبوّل فوق البلاطة الأسمنتية المصبوبة أمام باب المرحاض، وفي الصباح نرى آثارَ ما اقترفناه في الليل على شكل غيومٍ متداخلةٍ من الكِلْس والملوحة.

تثاقلتْ خطواتي وبدأتُ أستعيد تفاصيل الصباح في رأسي: هل غسلتُ شعري؟ هل فرشيْتُ أسناني؟ وحتى إنْ فعلتُ فبقايا الفلافل من فترة الاستراحة الأخيرة ما تزال عالقةً بها. «لم أستعدّ جيداً للقاء»، اعترفتُ لنفسي بأسى. توقفتُ وسط الطريق مترددةً: هل أُكمل طريقي، أم أرجع أدراجي؟ قررتُ المغامرة، ولكنْ ـ قلتُ لنفسي ـ عليَّ بالحذر: سأحاول ألا أقترب منه كي لا تَنْفذ إلى أنفه رائحةُ عرقي وأبخرةُ البصل والثوم التي تفوح من فمي.

دخلتُ الشارعَ الرئيسيَّ للسوق حيث يقبع مكتبُ السفر الذي يعمل فيه. شعرتُ بالعيون تترصّدني وكأنها جميعاً تعرف سرّي. توسلتُ إلى الله ألاّ أصادف أحداً من معارف أهلي فيفضحني. وتخيّلتهم يتساءلون: «ما الذي تفعله مقصوفةُ الرقبة هذه في السوق؟ تتسكع وحيدةً بلباس المدرسة، مثلَ كلبةٍ ضالّة». وتخيلتُ انتفاخ صدورهم بالنشوة، وهم يريحون ضمائرهم ويُفْشون سرّي لأبي وأمي...

توقفتُ عند زاوية الشارع وبدأتُ بمراقبة واجهة المكتب

من بعيد. دفعني أحدُ الشبّان بمرفقه عامداً في خاصرتي، محاولاً التحرّشَ بي، فتأوّهتُ مثلَ قطةٍ قذفتْها الأرجلُ في الهواء، وشتمتُه ثم رميتُه ببصقةٍ اقتفتْ أثره.

أخيراً، لمحتُ رجلاً يغادر المكتب. تنفّستُ الصعداء محدّثةً نفسي: «فُرِجَتْ. أخيراً سأراه وحيداً في المكتب». أسرعتُ باتجاه المكتب مروراً من أمام «دائرة النفوس». لَفَحتني أنفاسُ الموظفين الصائمين الذين كانوا يتوافدون خارجين من بوّابة البناء، قبل انتهاء دوامهم الرسميّ بساعةٍ تقريباً. امتزجتُ، رغماً عني، بحشدٍ من القرويين الذين تجمعوا بالقرب من مكتب السفر منتظرين قدومَ الباص، وقد بَسَطَ بعضُهم ـ وخاصةً الفتياتُ والأطفالُ ـ قطعَ قماشٍ ملونةً كانت تضمّ كنوزهم الثمينة التي تمكنوا من شرائها بعد مماطلة ومساومة مع جزادين أمهاتهم التي يعسر فتحُها بعد كل مرة تُغلق فيها: أقراطاً وعقوداً وأساور معدنيةً خفيفةً مطليّةً بسائل أصفر لتعطي الانطباع بأنها من الذهب، مبرقشةً ببعض النقوش، ومزيّنةً بفصوص ملونة من البلاستيك الشفاف؛ وجزادينَ صغيرةً جداً من القماش الملوّن أو البلاستيك؛ وأصابعَ من أحمر الشفاه الرخيصة؛ وعلباً متنوعة من الحلوى الرخيصة ما تزال ملفوفةً بقشرتها الشفافة؛ وأحياناً وجبةَ فلافل مع كيس من العصير.

أحسستُ بغيرة من أولئك القرويين الذين بدوا مطمئنين وهانئي البال بعد أن أتموا شراء حاجياتهم، ولا يعكّر صفوهم إلا تأخُّرُ مجيء الباص وقلقُهم من أن تكون رحلتُهُ الأخيرة قد فاتتهم.

حين أصبحتُ بمحاذاة الفتيات، شعرتُ بالخجل من مغامرتي، وخاصةً عندما لاحقنني بأعينهنّ حتى أصبحتُ على بعد خطوتيْن من عتبة باب المكتب. رأيتُ في أعينهنّ ما يشبه العتبَ والتأنيبَ وكأنهنّ كشفن سري وخمّنّ بغريزتهنّ ـ التي مصدرُها أعمارنا المتقاربة ـ سببَ وجودي في ذلك المكان. وجدتُني أتسمّر مكاني لحظاتٍ قبل عبور عتبة الباب، وأُرسل نظراتي لآخر مرة باتجاههنّ لأتأكد من أنهنّ كففنَ عن مراقبتي. شعرتُ بقليل من الراحة حين وجدتُ معظمهنّ قد عدن للانهماك في فحص مقتنياتهنّ الجديدة. وما إنْ أدرتُ وجهي وركّزتُ بصري ثانيةً على واجهة المكتب أمامي حتى سمعتُ صخباً ولغطاً خلف ظهري وصوتاً ينادي اسمي.

أحسستُ بأنّ ظهري قد انقصم نصفين، وأنني لن أقوى على التحرك شعرةً واحدة من مطرحي. وتدفقتْ في رأسي صورُ أهلي، وأقرباءِ أهلي، والجيران، وجيرانِ جيراننا، بل وبعضِ زبائن أبي الذين كانوا يأتون أحياناً إلى البيت طلباً لمشورته. كل الوجوه تخيلتها غضبانةً تلفظ اسمي بصوتٍ حادّ. كان بمقدوري رؤيةُ صدري يرتفع ويهبط مع كل شهيقٍ وزفيرٍ، وسالت قطراتٌ من العرق باردة على مؤخّرة عنقي، وأخذ رأسي يدور مثل مغازل الصوف، وأنا أفتش عن كذبة تنقذني من ورطتي. وبعد زمن بدا لي غايةً في الطول، أسعفتني لائحةُ أرقام اليانصيب الفائزة التي لمحتُها أمامي على واجهة زجاج المكتب، وذكّرتْني بأنني أحمل في حقيبتي رقماً سحبه أخي منذ أيام. خمدتِ الأصواتُ الهائجةُ خلفي فجأةً مثلما بدأتْ، فقررتُ أن أستدير، وليحدثْ ما يحدث بعدها. وحين استدرتُ لم أر أيَّ وجهٍ على الإطلاق. تتبعتُ ببصري زوبعةَ الغبار والمازوت المحروق التي كان الباص يثيرها خلفَه بعد أن ابتلع في بطنه حشدَ القرويين ومضى.

تخللني شعورٌ عاصفٌ بالضيق والمهانة، وأثرتُ أن أتحوّل إلى ذرّةِ ترابٍ تسبح في الفراغ على أن أُحسَّ كلَّ ذلك الخوف والضعف الذي مسخ اللقاءَ المنتظرَ كابوساً مرهقاً.

مسحتُ معطفي بيدي، وشددتُ أطرافه نحو الأسفل لكي أسبل طياته، ومرّرتُ أصابعي على شعري لأسيطر على أية شعرة في غير مكانها، ثم ملّستُ شعيرات حاجبيَّ إلى جهة واحدة، وأخذتُ نفَساً عميقاً، ودخلتُ المكتب غامسةً رأسي قبل قدميَّ في الإضاءة الداخلية الشحيحة للمكان.

وجدتُه جالساً بهدوء وراء طاولة المكتب العريضة، يداعب أوراقاً بيده. بعد ضغطة يد لذيذةٍ ومختلسةٍ مساءً في الشارع، بدا لي لقاءً كذلك اللقاء أشبهَ بهبةٍ لم أعرف الشعورَ الذي تفترضه: أفرحاً يكون أم حزناً؟ وبعد أن رحّب بي، جلسنا صامتيْن. فكرتُ أنه مرتبك مثلي، فسحبتُ دفتراً من حقيبتي وقرأتُ له جملةً كنتُ قد ترجمتُها إلى الإنكليزية، إذ قال لي في لقائنا الأول إنّها الجملة الوحيدة التي يعرفها بالفرنسية: «كلُّ الورود جميلةٌ لكنّ حبَّك أجمل». لم يعلّق، بل اكتفى بالدوران خلف طاولة المكتب، ثم سألني فجأةً: «أتشربين قهوة»؟ بلعتُ لعابي بخيبة أمل، وصوصأتُ مثل جرو: «أشربُ»!

سمعتُ صوته من الركن الصغير المعتم، المقتطَع من المحلّ ليشكّل مطبخاً، يدعوني إلى مساعدته. لم أجرؤْ على الدخول. أطللتُ برأسي، فلم أَر سوى دائرة النار الزرقاء والبرتقالية تتوهّج تحت ركوة القهوة. أرسلتُ الكلماتِ بغباءٍ كأنني لم أجدْ ما أقوله: «مطبخكم صغير جداً ومعتم جداً». أمسكني من يدي وسحبني باتجاهه مسافة قصيرة لا تتعدى الخطوتيْن، لكنها بدتْ لي كافيةً لتحرير روحي من ربقةِ المعطف ودَلْقِها في الفضاء والعتمة اللذيذة من حولي. أخذتُ ألهث، وألمَّ بي دوارٌ خفيف. «ما بكِ؟.. خائفة؟»، سألني بصوت ناعم. همهمتُ: «لا.. لا». تغلغلتْ أصابعُه في شعري، واحتكّ جلدُ يده الرطب بحلمة أذني، فانتفضتُ مثلَ سمكةٍ تقاوم الاختناق خارج الماء. دُهشتُ حين همَسَ في أذني بالجملة التي قرأتُها له من قبلُ، ثم ألصق شفتيْه بشفتيَّ وصار يحرّكهما حركةً غير مألوفة.

كنتُ ساكنةً كأعمدة الأسمنت التي يصبّها أبي في ورشاته لتدعيم الأبنية ومَنْعِها من الانهيار. تخيّلتُ أن سكوني سيحميني من الانهيار أمامه، من الفزع الذي كنتُ كثيراً ما أحسّه ينفر من عيون أختي الكبرى بعد عودتها من مشوارٍ مّا: محمَّرةً ولاهثةً مثلَ شخصٍ طورد لساعات، تُجيل البصرَ بتوتر حولها بحثاً عن عيون أبي وأمي لتفحص درجة احمرارهما، وطبقةَ الصوت التي يفرضها السؤالُ: «لماذا تأخرتِ»؟.

لم أكن قد جرّبتُ القُبلةَ من قبلُ. أحسستُ كأنّ شفتيّ تتمردان على جسدي محاولتيْن الانفصالَ عن البذلة والمعطف وجزمة المدرسة الثقيلة. كانتا كأنهما الجزءُ الوحيدُ فيَّ الذي ينبض ويرتعش ويهسّ هسيساً يشبه صوتَ تلاطم السنابل حين تداعبها الريحُ في بحرٍ واسعٍ من الحنطة. ولا بدّ أنّه أدرك، إزاء جمودي، أنها تجربتي الأولى، فأمسك ذقني بأصابعه ورفع عينيَّ في مواجهة وجهه وقال لي برقّة: «تخيّلي أنكِ تَمُصّين قطعةَ حلوى بين شفتيْكِ». حاولتُ مداراةَ خجلي وجهلي فقلتُ بسخرية: «هكذا!؟ بهذه البساطة؟!» فقال بجدية وهو يقرّب شفتيْه ثانيةً من وجهي، متجاهلاً لهجتي الساخرة: «نعم بهذه البساطة». عادت السنابلُ تهسّ متلاطمةً في حقل الحنطة الواسع الذي أخذ يمتدّ بالتدريج ليجرف في مداه رأسي برمّته ورئتيَّ والبروزيْن الصغيريْن فوق صدري. راحت أنفاسي تغادرني وتعود إليَّ من جديد بخفةٍ وعذوبةٍ لم أعهدهما من قبلُ. وأحسستُ بأعضائي طريةً ورخوةً كأنني غطستُ في حمام من الزيت. عاريةً وجذلةً ألِجُ بقعةً من الضوء، وأرى ألواناً لأول مرة في حياتي: ألواناً دسمةً وكثيفةً يمكنني لمسُها واعتصارُها بين أصابعي إنْ أردتُ: ألواناً لا تهرب مني بمجرد النهوض في الصباح. راودتني الرغبةُ في فتح عينيه والهمسِ في أذنيه: «أُحبكَ أُحبكَ أُحبكَ»، أن أسأله إنْ كنتُ أستحق ذلك الفردوسَ الذي قادني إليه، أن أشكره ولو بنظرة.

ولكني ما إنْ باعدتُ بين رموشي حتى رأيتُ امرأةً تركض بهلع صوبي وسطَ حقلٍ واسع من الحنطة، عاريةَ الرأس وحافيةً، تدوس على السنابل والأشواك والحصى الصغيرة، وتلوّح مهدِّدةً بعُودِ حَطَبٍ في يدها. شهقتُ متلعثمةً بكلماتي حين عرفتُها: «أمي! كيف عرفتِ؟!». لكنها تابعتْ عَدْوَها نحوي كأنها لم تسمعني، كأنها لم ترني، كأنني لم أكن إلا شيئاً مغبشاً وتافهاً مثل الغبار. وسمعتُ صدى صوتها يتردد عبر الهواء بالدعاء الذي يُطْلِقه الرعاةُ عادةً لإلحاق شاةٍ ضالّةٍ بالقطيع: «هرر هرر هرر»!.

عادت ذرّاتُ الاسمنت للالتحام في داخلي كأنها لم تتفتت وتذروها الريحُ منذ برهة فقط. وشفتاي عادتا مثلما كانتا من قبل: مجردَ خدشٍ غيرِ عميقٍ في لوحٍ من الجليد. وسال بدني نحو البلاط الذي بدا لي بزخرفته المتقاطعة بين الأبيض والأسود مثلَ قوالبَ معدنيةٍ ثقوبُها جاهزةٌ لاستقبال لحم جسدي المصهور. انتزعتُ نفسي من بين ذراعيْه بينما عبقتْ في أنفي رائحةُ عرقي مختلطةً برائحة الفلافل وأنفاس الموظفين ومازوتِ باصِ القرويين. شددتُ المعطف نحو الأسفل، وغمستُ رأسي في ضوء الشارع الباهر، وبدأتُ أجهش ببكاءٍ حادٍّ ومتواصلٍ لم يتوقف إلى هذه اللحظة.

لوس أنجلس

(إلى الصديق احمد عبدالله أينما كان)

- ١ -

أقول: شيكاغو عاهرة يا أحمد... لكنها تعرف كيف تسحر الآخرين وتسرق العشاقَ من وقتهم، أليس كذلك؟ وقد تكفيك بُحيرةُ ميشيغين تتأمل كفّها المفروشة بالأزرق والنوارس حين يرتعش في صدرك ذلك الشيء الذي نُسَمّيه: وَطَناً، أو حين ينهضُ من النوم حلمٌ ما ويحاكي ندى القلب.

لكنّ مأساة شيكاغو، اليتيمة، أنها ليستْ نيويورك. ورغم ادعائها صلةَ التوأمة، ورغم كدّها المحموم في السهر كي لا تنام، فإنّها تغفو على ذراع البحيرة مثل طفلةٍ قاومتْ نعاسَها ثم استسلمت للنوم...

أما نيويورك فدائمة الترقب، مشدودةٌ مثل قوس تأهُّب، مثلَ فرسٍ يقظة في انتظار ما لا تعرف.

تُرى.. من سمّاها بالمدينة التي لا تنام؟ مَنْ قال إنّها تأكل عاشقيها وتلقي بهم في بَطنِ عتمةٍ لا آخر لها.. مفتوحةٍ على مشهدِ الفراغ الذي لا ينتهي إلاّ بهاوية؟

وماذا سيقول فينا الآخرون حين نُعلن أنّ المدينة، رغم كل شيء، كانت حبَّنا الأول؟

سيقولون: هذا تواطؤ مفضوحٌ مع «الآخر». لكنَّ نيويورك لم تكن «آخرَ» أحدٍ... بل كانت وطناً كاملَ الأوصافِ والمعاني والذكريات. قاتلة ومقتولة، أرقٌ، ورقٌ، قلقٌ، هَمٌّ، غَمٌّ، غبارٌ، حطامٌ، وأشياءُ لا نعرفها بعد... أوَليسَ الوطن، أيّ وطن، كل هذا، مُضافاً إليه بحرٌ من الاغتراب؟

هل تَذكُر...؟

كنّا، فيها، ننسى أُمهاتِنا اللواتي يَبِعْن التينَ والزعتر في سوق البلد، كي يُرسلن لنا ثمنَ كتابٍ جديد. وكانت المدينة توزِّع علينا أرغفةَ الخبز وحياتنا ونساءً من النرجس، وتسحب من عمرنا ما شاءت من السنوات، ثم تنزلق من بين أصابعنا، أو تنزلقُ أيامُنا منا، دونَ أن ندري وننام..